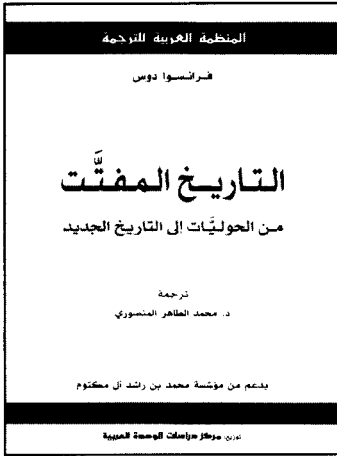


التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد



تأليف: فرانسوا دوس

مراجعة: محمد عبدالفتاح السيد سليمان
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الكويت

الناشر: المنظمة العربية للترجمة،
بيروت، 2009، 429 صفحة

نقدم خلال هذه الورقة نقداً وتقييماً للكتاب المترجم " التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد"، ترجمة د. محمد الطاهر المنصوري للنص الأصلي الفرنسي Franc, ois Dosse, L'histoire en miettes: Des "Annales" à la nouvelle histoire الذي طبع لأول مرة عام 1987، ثم أعيد طباعته في عامي 1989، 2005. وهو دليل على حداثة أفكار العمل القيم الذي يرصد حركة التطور المنهجي لعلم التاريخ الحديث والمعاصر من خلال معاصرة تاريخية لمجلة الحوليات الفرنسية "Annales"، وعلى الرغم من أن العمل في الوقت الحالي يفتقر لتأثير الثقافة التكنولوجية الحديثة التي طورت سبل تناول المعلومة

التاريخية ومعالجتها بصور شتى، فإن لهذا العمل - في مضمونه - قيمة ثقافية متميزة في رصد التفاعلات الإنسانية التاريخية للمجتمعات الأوروبية بصفة عامة والمجتمع الفرنسي بصفة خاصة منذ بداية القرن الماضي وفي أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم مرحلة التاريخ الليبرالي الاجتماعي في منتصف القرن الماضي، وأخيراً مرحلة تجديد الخطاب التاريخي في نهاية القرن.

ويتجول بنا فرانسوا دوس Francois Dosse بين محطات مهمة في تطور المنهجية التاريخية من خلال رصد تاريخ المجلة التاريخية الكبرى الحوليات "Annales" التي تعد - في حقيقة الأمر - من أشهر المدارس النقدية التاريخية الكبرى ذات التأثير الكبير في رصد وحفظ وتأريخ الأعمال التاريخية لفرنسا وللعديد من البلدان الأخرى، وخاصة فيما يتعلق بالتطور المنهجي لعلم التاريخ والعلوم المساعدة له؛ حيث أسهمت في تطويره بصورة كبيرة باستخدام الجانب العلمي الاجتماعي، والتركيز على التنمية الاجتماعية بدلاً من المواضيع السياسية أو الدبلوماسية، ومن ثم قفزت بالمنهج التاريخي نحو النقد الاجتماعي البناء⁽¹⁾.

تناول Dosse قضية رصد التفاعل التاريخي للحوليات "Annales" برؤية عصرية تميل للنهج القصصي الذي تغلفه رؤى درامية نقدية في أغلب الأحيان؛ فقد اتبع المنهج الزمني في رصد تاريخ الحوليات برسم صورة الواقع والدوافع الاجتماعية والتاريخية التي أسهمت ودفعت لظهور الحوليات في مطلع القرن الماضي، والتراكمات التاريخية المفتتة والمنسية في واقع المجتمع الفرنسي، التي رصدت منذ قيام الثورة الفرنسية، والتي طغى عليها المنهج التاريخي السياسي في نطاق جغرافي ضيق، لتنطلق الحوليات نحو آفاق جديدة في علم التاريخ، وسرعان ما أصبح النهج الجديد لعلم التاريخ مرتبطاً بتطور الدراسات الخاصة بالحوليات، ليس لربط التاريخ بالجغرافية كعلم واحد غير قابل للانفصال بالمنهجي⁽²⁾، بل لاندماجه مع مناهج العلوم الاجتماعية "السوسيولوجية" التي أسهمت في رفض التركيز الشديد على التناول السياسي والدبلوماسي والعسكري للتاريخ، ومن ثم الاتجاه به نحو آفاق جديدة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الذي يسهم في بناء الفكر الجديد للقرن الجديد، وهو المقصود بمصطلح المفتت

miettes (تفكيك، تمزيق، تخصيص منفصل)، ويبدو أن المصطلح يقصد مرحلة جدولة التاريخ لفروع شتى بعد خضوعه للتطور التكنولوجي للحاسوب، وهي المرحلة التي أنهى بها فرانسوا دوس كتابه.

في سياق ذلك بدأ (دوس) عرضه بمرحلة ما قبل ظهور تاريخ الحوليات؛ حيث حدد في البداية مجموعة من الدوافع التي أسهمت في ظهور الاهتمام بالتاريخ المفتت في الحوليات، وعين أولها الأزمة الاقتصادية العالمية Great Depression عام 1929 التي جاءت بعد الاضطرابات الناجمة عن كارثة الحرب العالمية الأولى؛ حيث عبر عن ثقافة المواطن الأوروبي أو الفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى، التي كانت تتجه نحو التخبط واليأس والتفكير في التراجع إلى ثقافة الماضي؛ فالأبعاد الإيديولوجية الناجمة عن كارثة الحرب دعت نحو الخلاص برؤية عرفت بروح الثلاثينيات، وهي الروح التي سيطر عليها السعي نحو بطولات الماضي بكل عيوبها؛ لأنها أفضل من كارثة ما بعد الحرب حتى ولو سيطر عليها الفكر الرأسمالي الإقطاعي المادي، فقد عاش خلال فترة ما بعد الحرب حالة غياب العدالة الاجتماعية في أغلب المجتمعات الأوروبية المتضررة من تلك الكارثة، وقد أدى مفهوم البطالة وغياب البعد الاجتماعي والتدهور السياسي العنصري - على سبيل المثال - إلى تحديد إيديولوجيات فكرية جديدة تتجه نحو الأنظمة الشمولية النازية والفاشية: "إن النظام السوفيتي سعى نحو الشيوعية الطريق الثالث (النظام الجديد) آنذاك كثورة اجتماعية ضد القمع والاستبداد في النظام البلشفي". ويمكن القول إن هذا النظام الجديد كان يمثل طوق النجاة المعاصر نحو الاقتراب من ثقافة المواطن والاهتمام بحياته الاجتماعية كنوع من التعويض أو التأمين على مستقبله بعد الحرب. ومن ثم هذا التغيير استهدف معه تغييراً في تناول التاريخي بصورة شمولية تشمل الحاكم والمحكوم⁽³⁾، وترصد البعد الاجتماعي للحدث التاريخي بصورة شاملة وبمنهجية التاريخ المقارن، وهو التحول الجديد الذي ينتظر المجتمع الأوروبي المتجول منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية، والدولة الدينية في القرون الوسطى.

أما الدافع الثاني فهو منبثق من الأول؛ إذ إن الرصد التاريخي للأنظمة الشمولية اجتماعياً قد يختلف عن رصد تاريخ الأنظمة الرأسمالية، هنا تبدو أهمية ظهور علم الاجتماع الذي برز بصورة كبيرة وكأنه علم القرن الجديد، وهو بالفعل هكذا، ففي مطلع القرن التاسع عشر والقرن العشرين ظهرت مفاهيم تهتم بالمجتمع بعيداً عن الرؤية السلطوية؛ فبدت منافسة لعلم التاريخ ومهيمنة تقريباً على مختلف العلوم الاجتماعية التي ترتبط بإحالة الإنسانية للمجتمعات الأوروبية؛ ففي عام 1894، ناقش المؤرخ بيير لacombe Pierre Lacombe العلاقة بين التاريخ والعلوم الاجتماعية، وعهد لمنظوره الجديد التاريخي السوسيولوجي إلى البحث عن القوانين في مقارنة توفق فيما بينهما، وناشد المؤرخين الابتعاد عن الحدث المفرد والعمل على استخدام الثوابت العلمية في البحث عن تأثير الحدث على الجماعة. وفي عام 1901 نسق المؤرخ Charles Seignobos المنهج المقارن في العلاقة بين التاريخ والعلوم الاجتماعية، وفي عام 1903 ظهرت مقالة Francois Simiand المنهجية التاريخية والعلوم الاجتماعية "Méthode historique et science sociale"، وهي المقالة التي استعرض فيها أزمة المنهج التاريخي السياسي في رصد تاريخ العصور الوسطى، وانتقد المؤرخين الذين تعاملوا مع (المعبود السياسي) و(المعبود القبلي) كقواعد أساسية دون الاهتمام بالفئات التاريخية المحيطة بهم، فوضع قواعد جديدة للعلوم المساعدة للمنهج التاريخي، بالاستعانة بالبعد الاجتماعي والاقتصادي والقانوني والديني والجغرافي كسبل جديدة تدرك الرؤية الشمولية لأحداث عصر سابق⁽⁴⁾. هنا يشير (دوس) إلى أنه منذ عام 1904 تجرد الفكر التاريخي من الجمود السياسي الذي قبله فترات طويلة، وظهرت مجموعة من الأطروحات تتناول فكرة التعاون المنهجي بين علم التاريخ والعلوم الاجتماعية⁽⁵⁾.

الدافع الثالث الذي أسهم في ظهور الحوليات كان التأثير الجغرافي الجديد للعالم الأوروبي قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها؛ فإن التغيير الجغرافي والطبوغرافيا المعنية قبل الحرب والتغيير الكبير الحادث بعد الحرب، كان

بالضبط كالفارق بين الخاص والعام، فظهرت المدرسة الألمانية التي تبحث عن تحرك الجغرافيا نحو التحدي والتطور السياسي وتغيير مفهوم الجغرافيا المستقرة الوضعية التي كانت سائدة في أغلب المجتمعات الأوروبية، ولعل هذا المفهوم الذي ولد الفكر الاستعماري نحو تغيير الوضع الساكن، وضع أسساً جديدة في اقتفاء أثر الموقع الجغرافي ودراسته بمفاهيم جديدة تبحث عن الموارد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية، بل إن الاهتمام في تلك الفترة وصل إلى دراسة أسلوب الحياة وتطورها فيما يعرف بعلم الأنثروبولوجيا الذي أسهم استراتيجياً في ظهور القوى الاستعمارية من خلاله على وجه العموم، واتخذ مسارات مختلفة عبر القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد أدى إلى استمرار التركيز على المقارنة بين التاريخ والجغرافيا والعلوم الاجتماعية الحديثة. ويرى (دوس) أن التحول الجديد للمنهج التاريخي المعاصر لتلك التغيرات، أدرك بسرعة مفهوم انعدام الثقة في البناء النظري المجرد، والجغرافيا الوصفية التي تعتمد على السطحية وتخلو من العمق، ومن ثم ظهرت مجموعة من الدراسات في مطلع القرن تبحث عن تطوير الدراسات الإقليمية بعمق استراتيجي مقارنة بغية التواصل مع واضعي السياسات في تحديد مستقبل النظام الشمولي الجديد سواء على نطاق التغيير الاجتماعي الداخلي أم على نطاق التطور الاستعماري الخارجي⁽⁶⁾.

أما الدافع الأخير الذي تعامل معه (دوس) فكان مرتبطاً بمفهوم الروح العلمية التي أحدثت ثورة كبرى في أوائل القرن العشرين، حيث قننت تلك الثورات العلمية - عند (ألبرت أينشتاين) في النظرية النسبية العامة والمحدودة، وثورة (ماكس بلانك) في النظرية الكمية - مفهوم الانتقال نحو التقدم العلمي الذي أسهم في إدراك لا محدود له في تطوير التنظير العلمي ونقله إلى روح التجربة والتجديد، وهنا يُسأل القارئون على النسق التاريخي هل من ضرورة لنقل المناهج التاريخية إلى حيز التجربة العلمية المتعمقة التي تبحث عن دراسة القوانين المنهجية الجديدة ووضعها، واختبار الفرضيات بعمق السببية والنقد، دون الاستسلام للنص بصورته القديمة، وكأنه فقط شهادة قادمة لنا من الماضي

السحيق ليس لها ضرورة علمية سوى أن تنقل وتروي وترصد فقط دون تحليل ديناميكي يحقق أفضل النتائج التي تدفع الإنسانية نحو التقدم العلمي المواكب لنهضة القرن العشرين؟.

في الجانب الأخير من الجزء الأول لعرض Dosse للتاريخ المفتت للحوليات الفرنسية، ألقى الضوء على الحركات المتحررة للمدارس الفرنسية التاريخية منذ أوائل القرن التاسع عشر، حيث رصد كيفية اعتماد المدارس الفرنسية التاريخية على جهاز الدولة في المنهجية التاريخية من خلال بعض المؤرخين أمثال (Adolphe Thiers, Francois - Auguste Mignet, Francois Guizot)، الذين عملوا على استغلال الفكر التاريخي القديم منذ قيام الثورة الفرنسية لتقديم نوع من المصالحة الوطنية والتغلب على الانقسامات والصراع الطبقي الذي ظهر منذ قيام الثورة عام 1789م⁽⁷⁾. ثم انتقل لمرحلة أخرى من حركات التطور المنهجي لرصد الأحداث التاريخية التي كانت من قبل مؤرخي الحكم الجمهوري الفرنسي، والتي بدأت تقريباً في عام 1876م من قبل (غابرييل مونود Gabriel Monod)، وطورت الرؤية التاريخية لتخضع بصورة تلفيقية ومواكبة لقرارات سلطة الدولة، وتسعى نحو تحسين صورة الحكم الجمهوري بجميع السبل⁽⁸⁾، مع تشويه صورة الحكم الملكي بمختلف الصور، وربما كان لها مبرر آنذاك، والبعض يذهب إلى أنها كانت تعكس ثقافة المجتمع الفرنسي وطبقة العامة التي كانت تعاني استبداد الفكر الإقطاعي. إلا أنها وضعت قواعد أصيلة في جواز (التلفيقية المنهجية) لمواكبة ظروف العصر.

في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تسمو المنهجية التاريخية نحو الرصانة الفكرية، عندما خضع التاريخ بكل رواياته للاستسلام لفكرة الحرب وخدمتها بكل السبل، هنا خضع علم التاريخ إلى (ديناميكية الفكر العسكري) المنظم والمرتب والدارس للأحداث بعناية، لذلك ظهر منهج منظم للدراسات التاريخية قدمه لنا (Charles Seignobos و Charles-Victor Langlois) من منطلق تطبيق ديناميكية العلم على المنهج التاريخي، فقد اعتبر أن المؤرخ ليس مؤلفاً، بل هو منسق أكاديمي لعلم التاريخ، ومن ثم وضع التاريخ في إطار

عملي محدد في أربع خطوات أساسية، الأولى: جمع المادة العلمية والملفات والسجلات والمخطوطات والوثائق بعناية فائقة. الثانية: مرحلة المراجعة والتوثيق الداخلي لضمان حقيقة المستند التاريخي. الثالثة: مرحلة الاستدلال والقياس والربط بينهما بضرورة التحليل الواقعي طبقاً للمصادر وليس للأهواء والأيول والفكر العنصري. والرابعة: تنظيم الحقائق والنتائج من خلال بناء منطقي يتفق مع المصادر التاريخية وقدر لا بأس به ومترن من التخييل الواقع للتاريخ حتى يكتمل البناء الديناميكي للتاريخ⁽⁹⁾.

انتقل (دوس) للحديث بعد ذلك عن علم من أعلام التاريخ الحديث والجديد في الوقت ذاته، وهو (إرنست لافيس - Ernest Lavis - 1842-1922) المؤرخ الفرنسي وأستاذ التاريخ الحديث في جامعة السوربون، الذي ألف كتاباً عن تاريخ بروسيا "دراسة عن تاريخ بروسيا" (Etudes sur l'Histoire de la Prusse) في عام 1879. وفيما بين عامي 1893 و1901 اشترك مع (ألفريد رامبو - Alfred Rambaud) في تحرير عمل تاريخي ضخم يعرف "التاريخ العام من القرن الرابع ليومنا" (L'Histoire jour générale du IVe siècle à la Révolution depuis). ويعتبر (إرنست) شخصية قيادية في تأسيس المدرسة النظامية للمناهج التاريخية على الرغم من ميله الواضح للعصر النابليوني ضد قوى المؤسسات الجمهورية، فقد اعتبر أن أمجاد تاريخ فرنسا تحققت بفضل سياسة الرجل البطل، ولكنه أسس منطقية الاستيعاب القوي للمعلومات والاستعداد لها بالمعرفة الجيدة حتى يتسنى للمؤرخ الوصول إلى الحكم الحقيقي للواقع التاريخي المعاصر للحدث وليس المعاصر للمؤرخ، واتجه (إرنست) بالتاريخ إلى مرحلة إنسانية مهمة حولت مجرى الأهداف التي يسلكها علم التاريخ، عندما شرع في تهيئة النص التاريخي ليمهد الطريق نحو بناء الدولة من الناحية القومية والوطنية، وترسيخ طريق الكفاح للأجيال القادمة دون النظر لعناصر الهدم المعنوي التي تحمل فؤوس التدمير؛ إذ إن الدم الذي بذل في جميع العصور من أجل الوطن هو دم الشعوب التي يجب أن تعرف أهمية هذا الدم وقدرته في بناء الوطن. ومن ثم لاقت نظرية إرنست اهتماماً شعبياً كبيراً لما تحمله من تاريخ إنساني وطني.

يستفيد (دوس) من هذا التحول الإنساني في المنهج التاريخي المتناول، وكأنه كان الدافع القوي وراء تأسيس الحوليات فيما يعرف بأسطورة التأسيس للحوليات الفرنسية Annales التي تأسست بواسطة (مارك بلوخ Marc Bloch) ولوسيان فافر (Lucien Febvre) في عام 1929، وسرعان ما أصبحت الحوليات مرتبطة ارتباطاً منهجياً متميزاً مع المنهج التاريخي الإنساني الشامل، الذي يجمع بين التاريخ والجغرافيا معاً من جانب، والتاريخ والمناهج السوسيولوجية من جانب آخر⁽¹⁰⁾، وترفض التركيز الشديد على الإطار السياسي والدبلوماسي والحربي المتأصل في كتابات القرن الـ 19 وأوائل القرن الـ 20، وقد أسهما معاً في تحويل مناهج المؤرخين الفرنسيين نحو آفاق جديدة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي⁽¹¹⁾.

يحاول (دوس) في أثناء رصد الفترة المبكرة من تاريخ إنشاء الحوليات الإشارة إلى مفهوم الفكر الاشتراكي والماركسي المتأصل عند (لوسيان فافر ومارك بلوخ)؛ فهو يرى أن اشتراكية (فافر) كانت السبيل نحو تأييده لفكرة النضال الاجتماعي والتحيز للجهة الشعبية ضد الفكر السياسي المضلل في أغلب الأحيان، كما أنه كان يستعرض بانتظام الأدبيات الماركسية كدوافع لتغيير النظرية التاريخية السياسية الطبقيّة⁽¹²⁾، في حين كان (بلوخ) في الأصل مناضلاً مهتماً بالتنشئة الاجتماعية الشمولية؛ فهو يقدم المنهج الجديد لتناول التاريخ المقارن للمجتمعات الأوروبية مرة أخرى، ولكن بصورة تتفق وواقع المجتمع المعاصر، وقد اقترض هذا الحس بتعاون لا حدود له بين المنهج التاريخي وعلم الاجتماع، كطريقة للمقارنة وتحديد الأولويات⁽¹³⁾.

هكذا اعتبر (دوس) أن فكرة التطور المنهجي لدراسة التاريخ في بداية القرن العشرين كانت يسارية الفكر ومتأثرة بالتطور الاجتماعي الماركسي، مع مجموعة من التعزيزات في الهيكل المنهجي (اقتصادية واجتماعية) وبصورة تسمح لرؤية الأحداث برؤية شمولية قدر الإمكان.

مع بداية الجزء الثاني من هذا العمل يحاول (دوس) الحديث عن الجيل الثاني الذي قاد الحوليات وتسلم الراية من المؤسسين، والذي كان يقوده فرناند

بروديل Georges Duby (1902-1985)، وشملت أيضاً، Braudel Fernand (1919-1996) Pierre Goubert (1910-), Robert Mandrou (1921-1984), Pierre Chaunu (1923-2009), Jacques Le Goff (1924), Ernest Labrousse (1895-1988). فقد أصبح (فرناند بروديل) زعيماً للجيل الثاني بعد عام 1945؛ حيث حصل على تمويل من مؤسسة روكفلر في نيويورك لدعم البحث العلمي التاريخي للحوليات، وأسس في قسم الدراسات العليا برنامجاً لدراسة المناهج المقارنة في مجال التاريخ والعلوم الاجتماعية.

ومما لا شك فيه أن التطور الثقافي والاجتماعي والعلمي التكنولوجي الحادث في المجتمعات الأوروبية كان في صراع مستديم عقب الحرب العالمية الثانية، وقد فتح آفاقاً جديدة نحو ضرورة التنمية الاجتماعية والاقتصادية الجبرية خلال الثلاثين عاماً بعد الحرب. ومن ثم فإنه خلال خضم هذا التفاعل الجديد تُرك الماضي بكل أشكاله وأنماطه، وحدثت تغييرات جذرية في مفهوم التطور الحضاري للشعوب الأوروبية مقارنة بوضع ما بعد الحرب العالمية الأولى⁽¹⁴⁾. وبالطبع، فإن هذا التطور أخذ في حسابان القائمين على إدارة الحوليات التي تحول مفهومها في تلك الفترة إلى مسمى جديد (الحوليات الاقتصادية الاجتماعية الحضارية) (Annales: économies, sociétés, civilisations). ويمكن القول إن التقدم التكنولوجي الرهيب الذي حدث خلال الثلاثين عاماً التالية للحرب جعل علم التاريخ يميل كل الميل نحو المفهوم الاقتصادي الذي أصبح هو المحرك الطبيعي لتراث الشعوب المعاصرة، وربما إشارة (دوس) هنا جديرة بالملاحظة في أن المجتمعات الأوروبية قد يمكن لها أن تغفل دمار الحرب المادية، ولكنها لا تغفل وتنسى الأزمة الاقتصادية عام 1929م، التي ظلت أسباب حدوثها محل دراسة مستفيضة من علماء الفكر الاقتصادي لتجنب حدوثها مرة أخرى، لذا تركز فكر المجتمعات الأوروبية حول البحث عن النمو الاقتصادي والاستفادة من القوى المنتجة الصناعية في العصر الحديث ومقارنتها بالعصور السابقة.

من هنا وجد القائمون على الحوليات - فيما بعد الحرب العالمية الثانية - أنفسهم مضطرين للتطور المواكب للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية الحادثة في

المجتمعات الأوروبية؛ فقد أصبحت معايير التاريخ الاقتصادي والعلوم الاجتماعية حكراً سائداً في معظم الدراسات التاريخية الإقليمية التي ظهرت في تلك الفترة، فقدم (روبرت بوتروش Robert Boutruche) عام 1947، رؤية حول المجتمع الفرنسي خلال حرب المائة عام، وهي نظرية تاريخية جديدة تجمع بين الرؤى الاقتصادية والاجتماعية، ويميل جورج دوبي Georges Duby يميل للمفهوم نفسه، فيقدم دراسة تاريخية للمجتمع الفرنسي في القرنين الحادي عشر والثالث عشر بالتصور نفسه الذي أصبح سمة عامة في الدراسات التاريخية من خلال ترسيخ منهجية الخليط بين المنحنيات الاقتصادية والديموغرافية وتحاليل العلاقات الاجتماعية وظاهرة ازدهار المجتمعات وتدهورها قبل الحروب المؤثرة في تاريخ الشعوب وبعدها⁽¹⁵⁾.

عاصر الجيل الثاني لمدرسة الحوليات أيضاً النهضة الفكرية المتميزة في فترة الخمسينيات والستينيات، التي تنحصر في تطور مفهوم العلوم الاجتماعية بشكل أكثر عقلانية وإتقاناً، وتخطيط اقتصادي واجتماعي قائم على تطور تكنولوجيا كبير في مفهوم الإحصاء والدراسات الكمية التي تطورت بشكل كبير في تلك الفترة. كما حدث تطور كبير في مجال علم النفس وارتباطه بالعلوم الاجتماعية، وهو الأمر الذي جعل المؤرخين قادرين تماماً على الانسياق نحو المعلومة الأكاديمية المتخصصة المدروسة والقائمة على تحاليل اقتصادية وإحصائية واجتماعية ونفسية، في أغلب الأحيان⁽¹⁶⁾.

ولكن التحدي الأكبر للدراسات التاريخية المعاصرة هو التطور الحادث لعلم الأنثروبولوجيا الجديدة ولا سيما في ظهور مفهوم (الأنثروبولوجيا البنيوية Structural anthropology)، وكان من أهم روادها آنذاك (كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss) الذي اهتم بدراسة أساطير الشعوب البدائية وعلاقات القرب والتقارب فيما بينها، لذلك أصبح اسمه مقترناً أيضاً بنظرية القرابة التي قدم عنها أطروحة خاصة عام 1949، وهي تقوم على المناقشة وتبادل الأفكار بين الشعوب⁽¹⁷⁾، وينتمي فكر شتراوس لقادة أساسية تعني أنه لا فرق بين المجتمعات البدائية المتوحشة والمجتمعات المتحضرة، كما أن فرائض البنيوية

قد تسمو بالإنسان على بقية الكائنات، وأن ثقافة قبائل الهنود الحمر - مثلاً - لا تقل أهمية عن ثقافة مفكري باريس. إلا أنه لم يلبث أن تراجع عن أفكاره بسبب التغيرات الواقعية السريعة التي طرأت على العالم المعاصر. كان (شترأوس) يدعو الشعوب إلى الانفتاح على ثقافة الآخرين من دون أن تدمر ثقافتها الخاصة، ضارباً المثل باليابان التي يراها - على حد تعبيره - "تمتصّ الكثير من الخارج وترفض الكثير، وهي أكبر بلد مترجم في العالم، ولكنها لا تهضم ولا تتمثل إلا ما يتناسب مع طبيعتها وعبريتها التاريخية". كما أنه كان ينتقد فكرة النمذجة التي ستجعل ملامح العالم شكلاً وحيداً أو أشكالاً متشابهة تقترب من الشكل الوحيد، ولو بلغة متألمة ويائسة، فلم يعد في إمكاننا فعل أي شيء، فالحضارة لم تعد تلك الزهرة الحساسة التي نحاول المحافظة عليها، والإنسانية اتجهت نحو الثقافة الواحدة من أجل ما يسمى بثقافة الجماهير الشاسعة، كما سيطر الإنسان سيطرة كاملة على الطبيعة التي أزهدت بين يديه ودمرته تدميراً سريعاً فانعدم الاختلاف الثقافي عبر الكون⁽¹⁸⁾.

ولكن البعد التاريخي في الهيكل الأنثروبولوجي البنيوي يعتمد في النهاية على التحليل الذاتي المعنوي للأحداث التاريخية التي تفتقد - في أغلب الأحيان - التوثيق التاريخي المتزن مع عمق التحليل المقدم برؤية أنثروبولوجية، لذلك عارضت الحوليات أفكار الأنثروبولوجيا البنيوية (لشترأوس)، وكان المعارض الأول لها (بروديل) الذي رفض الاستسلام لهذا التدخل الأنثروبولوجي بشكل كبير في المنهجية التاريخية، حتى لا يخضعها إلى الرؤية الأسطورية التي تعتمد على عمق الحدث دون توثيقه تاريخياً. عارض (بروديل) أيضاً مفهوم الانفتاح التراثي والتاريخي واختلاط الأعراق دون مبالاة بالواقع الجغرافي والزمني للمنهجية التاريخية، وهي القواعد التاريخية والثوابت المنهجية التي تعوق التعامل مع المنهج الأنثروبولوجي البنيوي⁽¹⁹⁾.

التحدي الثاني الذي تعرض له الجيل الثاني لمؤسسي الحوليات كان ظهور (الرأسمالية Capitalisme) الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية، وهو النظام الاقتصادي ذو الفلسفة الاجتماعية والسياسية، الذي يقوم على أساس تنمية

الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعاً في مفهوم الحرية. كما أنه يزيد من أهمية مفهوم الملكية الفردية في الموارد النادرة حيث يفتح السوق المنافسة الصرفة بين الأفراد لاستغلالها بكفاءة. وبما أن الرأسمالية تعزز الملكية الفردية، فإنها تقلص الملكية العامة، ويوصف دور الحكومة فيها على أنه دور رقابي فقط. ويبدو أن الاقتصادي البريطاني (جون كينياس) قد جاء بنظريته الاقتصادية المنسوبة إليه في منتصف الثلاثينيات⁽²⁰⁾، من خلال أن الاقتصاد الرأسمالي غير قادر على حل مشكلاته بنفسه كما في النظرية الكلاسيكية، بل إن هناك أوقات كساد اقتصادي (كالكساد الاقتصادي في أمريكا في الثلاثينيات) تحتم على الحكومة أن تحفز الاقتصاد. وتوصف نظريته - التي يتبعها كبار الرأسماليين كأمریکا - بأنها وضعت الرأسمالية أقرب إلى فكر الاشتراكية.

هاجم بروديل هذا التصور الحديث للرأسمالية في عمله التاريخي الضخم (Civilisation Matérielle, Economie, et Capitalisme 1979)، للأحداث التاريخية ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، وظهور الطبقة البورجوازية التالية لمرحلة الإقطاع المتداخلة معها، ثم مرحلة البورجوازية الرأسمالية، وذلك منذ بداية القرن السادس عشر، ولكن بشكل متدرج، فلقد ظهرت أولاً الدعوة إلى الحرية، وكذلك الدعوة إلى إنشاء القوميات اللادينية، والدعوة إلى تقليص ظل الباب الروحي، ثم ظهر المذهب الحر (الطبيعي) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا حيث ظهر الطبيعيون. كما جادل (بروديل) بأن الرأسماليين هم طبقة من المحتكرين المستغلين، وأصحاب المشاريع العاملة في الأسواق التنافسية. كما جادل بأن الرأسمالية لم تتخصص، ولم تستخدم مفهوم الأسواق الحرة⁽²¹⁾.

انتقل (دوس) في الجزء الثالث والأخير من كتابه إلى الحديث عن عصر (التاريخ المفتت) المقصود، والذي عاصرت ملامحه الأولى مجلة الحوليات خلال فترة السبعينيات، ومن الواضح أن (دوس) أراد توضيح تطور الفكر الإنساني داخل المجتمعات الأوروبية عقب الحرب العالمية الثانية، الذي انجرف نحو الحماية والأمن الاقتصادي والصناعي بصورة هستيرية أفقدته إحساسه

بالطبيعة الإنسانية في أغلب الأحيان، ولكن الاستفادة التي روجها علم الأنثروبولوجيا في ظهور مفهوم البنيوية الذي يرمي إلى البحث عن الجذور الإنسانية الثقافية، وعلى الرغم من المواجهة البروديلية السابق ذكرها، فإن المناخ التاريخي الحادث في العالم الثالث بصفة خاصة في تلك الفترة أسهم في تأثر مؤرخي تلك الحقبة بالرؤى البنيوية لشعوب العالم الثالث التي كانت تسعى - آنذاك - نحو التحرر من قيود الاستعمار الأوروبي بخطاب تاريخي جديد يبحث عن الأصول الثقافية والتراثية التي تثبت ملكيتها التاريخية لتلك الأراضي.

هذا التطور ظهر أيضاً بصورة مختلفة في المجتمعات الأوروبية التي كانت تعيش مفهوم الحرب الصناعية الباردة، بعقول ديناميكية خالية من المشاعر الإنسانية، ولكن هذا التصور - على سبيل المثال - أوجد حالة عقلية جديدة في المجتمعات الأوروبية تسمو نحو التأمل بعيداً عن العالم الصناعي وحالة الركود والبطالة والتضخم المالي، وهي ظواهر متناقضة تأمل في معالجة البشر بصورة نفسية وإنسانية تختلف عن عقول الماكينة وترؤسها المرصوفة.

عاصرت الحوليات تلك المرحلة بصورة جديرة بالاحترام عندما اهتمت بدراسة الأبعاد الإنسانية عند شعوب العالم الثالث خلال حقبة السبعينيات، ولا سيما في دول أمريكا اللاتينية التي طبقت في دراستها معايير التاريخ المفتت المقصود في الدراسة الشمولية التي تجمع بين التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ليس من أجل رصد التاريخ فحسب، بل من أجل تنمية تلك المجتمعات بالوقوف على مشكلات بعيدة عن التطور السياسي أو الصناعي، وطرح مشكلات تاريخية جديدة مثل تاريخ البطالة وتاريخ الأمية، وأصول ظواهر متعددة في المجتمع مثل العنف والتخلف، والعادات والتقاليد والسحر والأدب الشعبي، وغيرها من الأنماط التي أثرت على الخطاب التاريخي في حقبة السبعينيات، فتعامل معها المؤرخون وتصدوا لها من خلال الحوليات⁽²²⁾.

بالطبع تأثر المنهج التاريخي بتلك الظواهر الثقافية الجديدة التي طرحها - دون شك - علم الأنثروبولوجيا البنيوية. ولكن عشوائية التأثير والتأثر في تلك الفترة تأثرت - إلى حد ما - بالصراعات السياسية، التي صورت - في أغلب

الأحيان - التناول التاريخي في تلك الحقبة بالتفكك والعشوائية، وبصفة خاصة عندما تصطدم الحقيقة التاريخية بالقرار السياسي المتجاهل لها تماماً. لذلك قامت الحوليات في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات (بجدولة التاريخ)، والمقصود هنا - بحسب رؤية (دوس) - أن الحوليات قامت بتفكيك التاريخ إلى أجزاء منفصلة، وهي مرحلة جديدة في المنهجية التاريخية تبتعد كثيراً عن المنهجية الشمولية السابقة، وضرورة الانسياق وراءها كان بغرض تقديم التاريخ الجدولي تحت تأثير التقدم التكنولوجي الجديد بظهور الحاسوب الذي افترض ضرورة تفكيك المادة التاريخية لاستيعابها. تلك المرحلة أبرزت التخصص والتحليل والانفراد والتعمق وغيرها من المصطلحات المنهجية التي طورت منهج الدراسات التاريخية في الحوليات في تلك الفترة.

ويفترض (دوس) أنه على الرغم من انسياق المؤرخ تحت ضغوط الحاسوب، فإنه استفاد كثيراً من تفكك المادة التاريخية التي جعلته يتواصل أكثر فأكثر مع العلوم الاجتماعية الأكثر حداثة والأجدر تجديداً، وهنا كان من الضروري أن تسعى الحوليات إلى مفهوم الحداثة، فعلى الرغم من حالة التفكك التي يحدثها الحاسوب للزمن، فإن المستقبل أصبح يتحول إلى صورة مستقلة يمكن تكوينها بسهولة والتغاضي عن سلوكيات الماضي والحاضر. وهو السلاح الذي حاولت من خلاله الحوليات تقديم رؤيتها للخطاب التاريخي الجديد في الثمانينيات.

في النهاية نجد أن الكتاب الذي قدمه (دوس) هو تطور للمنهجية التاريخية التي عاصرت مراحل تطورها مجلة الحوليات الفرنسية حتى وصلت إلى مفهوم التاريخ المفتت؛ أي التاريخ الذي يفتح أبوابه على مصاريعها لجميع العلوم التي تسهم في ثراء المعلومة التاريخية وتوسع مداركها؛ فهو التاريخ الذي يتبع مختلف العلوم الاجتماعية ولكنه يحافظ على القاعدة التاريخية وعلى طموحه الشمولي، وهو بالفعل ما حدث في بداية القرن الحالي؛ حيث اكتفى التاريخ بحالة التفكك والتفتت والانسياق خلف التطور التكنولوجي، وأصبحت المنهجية التاريخية تسمو مرة أخرى نحو الطموح الشمولي المبرمج بقواعد البيانات التي يوفرها الحاسوب بصورة شمولية ورؤية أوسع وأخصب.

- Iggers, G.G. *Historiography in the Twentieth Century: From Scientific Objectivity to the Postmodern Challenge* (1997), 59-61; Long, Pamela O. "The Annales and the History of Technology", **Technology and Culture**, Volume 46, Number 1, January (2005), 177-186. (1)
- Heruber, Jean-Pierre V. N. "Historiography's Horizon and Imperative: Febrian Annales Legacy and Library History as Cultural History", **Libraries & Culture**, Volume 39, Number 3, Summer (2004), 293-312. (2)
- Hexter, J. H. "Fernand Braudel and the Monde Braudelline," **Jornal of Modern History**, (1972), vol. 44, 480-539; Joseph S, and Samuel W, "Estimates of national product and income for the United States economy, 1919-1941, "Explorations in Economic History 10 (1972) 53-73. (3)
- François Simiand, "**Méthode historique et science sociale.**" (1903). (Deuxième partie) Extrait de la Revue de synthèse historique, (1903) 129-157; Gérard Noiriel, "**L'éthique de la discussion chez François Simind.** A propose de deux conférences sur l'Histoire (1903-1906)", in Penser avec, penser contre. Itinéraires d'un historien., Paris, Belin, (2003)47-61. (4)
- Ashley D, Orenstein DM. **Sociological theory: Classical statements** (6th ed.). Boston, MA, USA: Pearson Education. (2005) pp 94-98, 100-104. (5)
- l'observation vont favoriser l'essor des monographies régionals: Albert Demangeon, La Picardie (1905); Raoul Blanchard, La Flandre (1906); Raoul Felice, La Basse Normandie (1907); Antoine Vacher, Le Berry (1908) et Charles Passerat, Le Poitou (1908); Jules Sion, Les paysans de Normandie orientale (1909); Max Sorre, Les Pyrénées méditerranéennes (1913). Wallerstein, Immanuel. "Anthropology, sociology, and other dubious disciplines." **Current Anthropology** 44: (2003) 453-466; Shanklin, Eugenia. 1994. **Anthropology & Race**; Faye V. Harrison. 1995. "The Persistent Power of 'Race' in the Cultural and Political Economy of Racism. "**Annual Review of Anthropology**. 24: 47-74. (6)
- Gérald Gaillard, **Dictionnaire des ethnologues et des anthropologues**, Armand Colin, (1997), 5; Henri-Jean Martin, Aux sources de la civilisation européenne. Paris, Albin Michel, (2008). (7)
- Monod, Gabriel. **Encyclopaedia Britannica** (11th ed.) 1911. (8)
- Charles Victor Langlois. Charles Seignobos. Introduction aux études historiques, (1897) R. Fawtier, "Charles Victor Langlois", **The English Historical Review**, vol. 45, no. 177, Jan. (1930), 85-91. (9)
- Colin Jones, "Olwen Hufton's 'Poor', Richard Cobb's 'People', and the Notions of the longue durée in French Revolutionary Historiography," **Past & Present**, 2006 Supplement (Volume 1), 178-203. (10)

- Burguière, André. **L'École des Annales: Une histoire intellectuelle**. Paris: Odile Jacob. (2006). 366 (English edition) **Annales School: An Intellectual History**. Ithaca NY: Cornell University Press. (2009). 309. (11)
- Huppert, George. "Lucien Febvre and Marc Bloch: The Creation of the Annales. "The French Review Vol. 55, No. 4 (Mar., 1982), 510-513. (12)
- Burguière, André. **L'École des Annales: Une histoire intellectuelle**. Paris: Odile Jacob. (2006). 366. (13)
- Reberts, Michael. "The Annales school and historical writing." in Peter Lambert and Phillipp Schofield, eds. **Making History: An Introduction to the History and Practices of a Discipline**. (2004), pp 78-92; Stirling, Katherine. "Rereading Marc Bloch: the Life and Works of a Visionary Modernist. "History Compass (2007) 5(2): 525-538. (14)
- Éloge de Duby par Jean-Marie Rouart, http://www.academie-francaise.fr/immortels/discours_reception/rouart.html. (15)
- Aurell i Cardona, Jaume. "Autobiographical Texts as Historiographical Sources: Rereading Fernand Braudel and Annie Kriegel, "Biography, Volume 29, Number 3, Summer (2006) 425-445. (16)
- Doland, Angela (3 November 2009). "Anthropology giant Claude Levi-Strauss dead at 100". Associated Retrieved 4 November (2009). (17)
- Boon, James, and David Schneider. Kinship vis-a-vis Myth Contrasts in Levi-Strauss' Approaches to Cross-Cultural Comparison. **American Anthropologist**, New Series 76.4 (1974): 799-817. (18)
- Harris, Olivia. "Braudel: Historical Time and the Horror of Discontinuity. "History Workshop Journal 2004 (57): 161-174. (19)
- Barnes, Trevor J. **Reading economic geography**. Blackwell Publishing. (2004). 127; Markwell, Donald, John Maynard Keynes. **International Relations: Economic Paths to War and Peace**, New York: Oxford University (2006). (20)
- Olivia Harris, "Braudel: Historical Time and the Horror of Discontinuity." (2004) (57): 161-174. (21)
- Burke, Peter. **The French Historical Revolution: The Annales School 1929-89**, (1990); Long, Pamela O. "The Annales and the History of Technology, "Technology and Culture, Volume 46, Number 1, January (2006). 177-186. (22)

* * *